الكاتب المغربي حسن عزوزي مدققا في مواقف المسلمين من العنف:

مساهمة متواضعة في تصحيح صورة الذات لدى الغير

منتصر حمادة *

كيف نزعم أننا نساهم في تصحيح صورة الذات العربية والاسلامية، اذا كانت طبيعة المبادرة موجهة أساسا للمتلقي العربي والمسلم من جهة، وقائمة على تمرير خطاب تبرئة الذات وتساهم على الخصوص في ابقاء أوضاعنا المفاهيمية والفقهية كما هي!

استحضرنا هذا التساؤل ونحن نطلع على ثنايا كتاب أصدره مؤخرا الباحث حسن عزوزي ويحمل عنوان «الاسلام وتهمة الارهاب»، ويندرج ضمن سلسلة «تصحيح صورة الاسلام» (مطبعة آنفو. برانت. فاس. الطبعة الثانية 2006. 115 صفحة من الحجم المتوسط).

توزع العمل على خمسة فصول وجاءت تحت العناوين التالية: «موقف القرآن والسنة من قضايا الارهاب والعنف والتطرف»، «نبذ العنف والقوة السلبية في القرآن والسنة»، «عندما يُتَّهَم الاسلام بالارهاب»، «من يقف وراء الاتهام»، «سياسة التخويف من الاسلام»، «الاسلام دين الأمن والسلام والتسامح»، اضافة الى مبحث ختامي يحمل عنوان «من أجل مواجهة حملات التشويه».

نقرأ في تمهيد الكتاب، أن العمل «يأتي ليسهم في تصحيح جانب من جوانب تلك الصورة المشوهة للاسلام التي نضجت بقوة في الأوساط الغربية غداة تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، ويشكل محاولة طموحة لبحث أسباب وخلفيات الصاق تهمة الارهاب بالاسلام وهي التهمة التي ترددت طويلا عبر مختلف وسائل الاعلام الغربية في تحد صارخ لشاعر أكثر من مليار مسلم». (والكاتب بالمناسبة، رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة بفاس، ورئيس «مجموعة البحث في مجال تصحيح صورة الاسلام»).

تذكير بصورة العرب والمسلمين

لا نقرأ جديدا في الكتاب بخصوص واقع صورة العرب والمسلمين، عندما يشير المؤلف مثلا الى أن «موجة الحقد والكراهية التي أبداها كثير من الغربيين بعد تلك الأحداث ـ ويتحدث عن اعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001 ـ لم تقف عند مضايقة واستفزاز مواطنيهم من العرب والمسلمين، وانما انجر ذلك الى اتهام الاسلام ذاته بأنه يدعو الى العنف والارهاب وبذلك اختزل الغربيون الاسلام كله بعقيدته ومبادئه وقيمه في الذين يعتقد أنهم قاموا بالاعتداء على المواقع الحيوية الأمريكية»، مضيفا، أن «ما يعرف اليوم في الأوساط السياسية والاعلامية بالارهاب والتطرف ومشاكل ذلك من مصطلحات تحمل دلالات وايحاءات سلبية انما هي مصطلحات قد صنعت في الدوائر السياسية والاعلامية الغربية فان الاسلام له موقف ثابت وصارم في نبذ كل ما يرتبط بلغة العنف من مفاهيم متنوعة كالارهاب والتطرف».

«يحلو لكثير من السياسيين الغربيين أن يتهموا المسلمين بالميل الشديد نحو العنف والغلو الناتج عن شدة التمسك والتشبث بتعاليم الاسلام (المتشددة) كما يدعون وهذا الاتهام»، برأي المؤلف، «ليس له أدنى أساس من الصحة ويمكن درؤه ورده بأمر بسيط هو التذكير مرة أخرى بأن كثيرا من أحداث العنف والتطرف التي حدثت في بلاد الغرب كان من ورائها رجال دين متطرفون، فما مصرع رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق اسحاق رابين على أيدي متطرف يهودي الا أكبر دليل على ذلك. ناهيك عن أحداث اطلاق الغازات السامة التي عرفتها أنفاق قطارات طوكيو عام 1995 والتي كان من وراءها متطرفون بوذيون»، مستشهدا بما جاء في كتاب للباحث الفرنسي جيل كيبل يحمل عنوان: «انتقام الرب»، حيث اشتغل كيبل على سرد لائحة بأهم التيارات الأصولية المتطرفة بأمريكا وغيرها والتي أثبتت الاحصاءات الحديثة تورطها في كثير من أعمال العنف الدامية.

نؤاخذ على المؤلف تواضع عدد المراجع التي اعتمد عليها في معرض «تفكيك» الصور المروجة عن العرب والمسلمين في مختلف المنابر الاعلامية الغربية، بحيث نطلع في مقال «سياسة التخويف من الاسلام» ـ المقال الأول من الفصل الرابع ـ على ثماني مراجع فقط تمتد من 1979 الى 2000! في حين نجد مجموعة من الأدبيات الهامة التي اشتغلت على هذا الموضوع، ونخص بالذكر، دراسة الباحث الجزائري الصادق الرباح الموسوم بـ«الاسلام في الخطابات الاعلامية» (الفرنسية نموذجا) (L'Islam dans le discours mdiatique)، وقد سبق لمؤلفه أن استعرض خطوطه العريضة في أعداد 27، 28 و29 تموز (يوليو) 1998 عبر صفحات هذا المنبر بالذات، وتقوم هذه الدراسة الرصينة على تقييم تعاطي أسبوعيتي «الاكسبرس» و«لونوفيل أوبسرفاتور» مع الأحداث الثلاثة التالية: قضية سلمان رشدي، الفتيات المحجبات، وصورة المرأة في الاسلام.

بالنسبة للموقف الرسمي الغربي من صدمة تفجيرات نيويورك وواشنطن، فقد كان «موقفا ايجابيا عَبَّرَ عنه كثير من كبار المسؤولين الغربيين الذين سارعوا الى طمأنة المنظمات الاسلامية وابداء تفهمهم لتخوفات الجاليات الاسلامية، من خلال التأكيد على أن الاسلام بريء من كل أشكال العنف أو الارهاب وأنه دين السلام والأمان والتسامح وأنه لا يمكن اتهام أو مؤاخذة عموم المسلمين بجريرة واحد أو مجموعة ممن ينتسبون اليهم قد يثبت ضلوعهم في الهجوم». والملاحظ في هذه الجزئية، تغييب استشهاد المؤلف عما صدر عن الرئيس الأمريكي جورج بوش، فيما سُمِّيَ بزلة اللسان الشهيرة التي تحدث فيها عن شن «حرب صليبية»!

لا تخرج رؤية المؤلف لموقف الاسلام من أعمال العنف والارهاب عما سطرته أغلب الاجتهادات الفقهية المعروفة. (خصص المؤلف خمس صفحات للحديث عن موقف الاسلام من مفهوم الارهاب، وصفحتين حول مفهوم العنف وثلاث صفحات حول مفهوم التطرف وصفحتين حول وسطية الاسلام المنافية للتطرف).

يؤسس المؤلف من مقالات مايكل والتزر وبرنارد لويس حكما قطعيا مفاده أنه ثمة عداء في وسائل الاعلام الأمريكية اتجاه «ظاهرة الصحوة الاسلامية»، على اعتبار أن «مثل هذه المقالات والندوات الصحفية التي يطالها كثير من التمييع والتشويه يراد من خلالها ترويج مقولات وشعارات التخويف والتحذير من الاسلام والمسلمين. ولعل أبرز ما يحكم تلك التصورات الموغلة في التشاؤم، يضيف الكاتب، ظاهرتان أساسيتان هما:

ـ ظاهرة توجه التيار الاسلامي الجديد في الغرب الى ممارسة دور سياسي متعاظم ينمو شيئا فشيئا، ويمثل أهمية كبرى ما فتئ الخبراء الاستراتيجيون والمستشرقون الغربيون يدرسونها تحت يافطة «الاسلام السياسي».

ـ ما يسمى ظاهرة «التطرف الديني» التي يحلو للغربيين أن يبالغوا في توصيفها وتحليلها وذلك بالصاق تهم العنف والارهاب والتعصب بكل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة من غير تمييز أو تفريق».

+++ في التصدي للصور المغلوطة

في معرض التصدي للصورة المغلوطة التي تروج عن الاسلام والمسلمين في مختلف المنابر الاعلامية الغربية، يورد الكاتب مجموعة مقترحات، يمكن ايجازها في النقاط التالية:

ـ رصد كل الحملات التشويهية التي تثار ضد الاسلام والمسلمين عبر وسائل الاعلام الغربية، ومن خلال المقررات والكتب الدراسية والعلمية.

ـ التفكير في ربط جسور التعاون والتواصل بين وسائل الاعلام العربية والشبكات الاعلامية الغربية المهيمنة على مختلف وسائل الاعلام المكتوبة والمرئية.

ـ تجنيد وتوفير الأطر والكفاءات الفكرية العاملة بالديار الغربية والتي يؤمل أن يكون لها دور فعال في تصحيح المفاهيم حول الاسلام.

ـ استغلال شبكة الانترنت في خدمة الاسلام.

وما غاب عن المؤلف في هذا الصدد، أن يُمَرِّرَ نقدا مزدوجا خاصا بمأزق صورة العرب والمسلمين لدى الغير، لأنه لا يمكن أن نختزل أسباب تمرير مسؤول في أروقة المجال التداولي الاسلامي العربي لتحديد مواقفنا الحقيقية من التطرف والعنف والتشدد، وهل ثمة بالفعل ممارسات اسلامية حركية يمكن تصنيفها ضمن حالات التطرف أم أن الأمر لا يعدو أن يكون «بدعة اعلامية» اتجاه تيارات «الصحوة الاسلامية»... «يحلو للغربيين أن يبالغوا في توصيفها وتحليلها وذلك بالصاق تهم العنف والارهاب والتعصب بكل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة من غير تمييز أو تفريق»!

الجميل في هذا التقييم أنه يحيلنا على اشكاليات مفاهيمية أكبر تتعلق بتعاطي المسلمين عموما (سلطة حاكمة ونخب ثقافية ورأي عام) مع ظاهرة الحركات الاسلامية. أما المثير، من وجهة نظرنا، فيكمن على الخصوص في تكريس الخلط بين الحديث عن واقع المسلمين والواقع الاسلامي الحركي، والا، ما معنى حديث الكاتب عما «يسمى ظاهرة (التطرف الديني) التي يحلو للغربيين أن يبالغوا في توصيفها وتحليلها»؟

لنترك الغرب السياسي والغرب الأمني والغرب الديني في جانب، حتى لا يصبح شماعة لتفادي فتح نقاش مسؤول في أروقة المجال التداولي الاسلامي العربي لتحديد مواقفنا الحقيقية من التطرف والعنف والتشدد، دون أن نتحمل ولو جزءا يسيرا من المسؤولية الذاتية المباشرة في هذا المطب، وهذا عين ما يقف عنده، مثلا، الباحث علاء بيومي (مدير الشؤون العربية بمجلس العلاقات الاسلامية الأميركية)، الذي امتلك الشجاعة الأخلاقية والأدبية للاقرار بأن «الخلفية الثقافية والحضارية لصورة الاسلام في الولايات المتحدة ـ نموذجا ـ ليست السبب الوحيد لما يشوب علاقة أمريكا بالعالم الاسلامي في الفترة الحالية من توتر، فهناك عوامل أخرى عديدة تساهم في ذلك من بينها التصرفات المشينة التي تقوم بها بعض الأطراف المسلمة أو الأمريكية ضد الطرف الآخر، وتراث الأفكار النمطية السلبية التي يمتلكها كل طرف عن الآخر، ودور المصالح المادية في اشعال الخلاف بين الطرفين» (صورة الاسلام في أمريكا.. الجذور والحاضر. «الجزيرة. نت. 2004/3/10 أما الباحث اللبناني رضوان السيد، فقد لاحظ بذكاء أننا لا نجد في المؤسسات الدينية الرسمية على طول العالم العربي وعرضه معهدا أكاديميا واحدا متخصصا في «دراسة وفهم العلاقة الدينية والثقافية المُلتبسة مع الغرب الأوروبي والأمريكي». (رضوان السيد. التعامل مع المستجدات يتطلب معرفة لا نملكها. الحياة. 2006/3/18)

ازدواجية الحديث عن الحوار

يراهن المؤلف أيضا على دور الحوار في «تغيير الصورة القائمة والمشوّهة التي يكونها الغرب عن الاسلام»، فبالحوار «فقط تتاح فرصة التخفيف من حدة تيار التخويف والترويع من الاسلام الذي يهيمن على كثير من مؤسسات الاعلام والثقافة الغربية»... «انه بالحوار فقط يمكن الرد على كل ما يسيء الى الاسلام والمسلمين والاحتجاج على ذلك لدى الجهات المسؤولة في الغرب».

هذا كلام عام حتى لا نقول فضفاضاً، لأننا على اطلاع بـ«حقيقة» المؤتمرات التي تُنَظم بين الفينة والأخرى حول موضوع الحوار ـ ودون أن نبخس نوايا العديد من المشرفين والمشاركين في هذه المبادرات ـ فان الواقع العربي والاسلامي يشهد بأننا نمارس ازدواجية رهيبة بخصوص التعاطي مع هذا الموضوع، وبالنتيجة، لا يمكن لهذه الازدواجية الا أن تنعكس سلبا على الأهداف المروجة، ومنها ما يصفه المؤلف بتصحيح صورة الاسلام.

* كاتب من المغرب

تعقيب على مقال محمد بنيس:

لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بقصيدة النثر؟

عبد القادر الجنابي

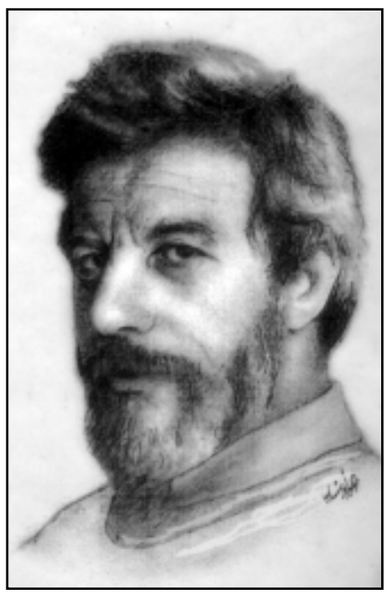

محمد بنيس

قرأت مقالة محمد بنيس، ووجدت فيها ملاحظات مهمة خصوصا في الجزء الأول منها... بعضها يكاد أن يكون معروفا في كتب النقد والآخر تكرارا حرفيا لما كتبته، مثلا، في كتابي «رسالة مفتوحة الى أدونيس»: «ان المرعب في الأمر هو أن أدونيس انتظر ظهور أطروحة دكتوراه لطالبة اسمها سوزان برنار، حتى يدرك أن هناك شعرا اسمه قصيدة نثر، جاهلا أن ثمة قرنا من النتاج الغزير والتطورات حد أن قصيدة النثر نفسها لم تعد تسمى قصيدة نثر وانما قصيدة فحسب» (دار الجديد، بيروت 1994/ صفحة 52). أو حول أهمية كتاب سوزان برنار، في كتابي الذي صدر عن دار النهار (2001) «الأفعى بلا رأس ولا ذيل: انطولوجيا قصيدة النثر الفرنسية»: «... في نظر النقاد، لطروحات سوزان برنار أهمية واحدة في فرنسا هي تذكير الجامعة بقصيدة النثر كجنس أدبي يجب أن يُدرس (صفحة 137). وبالمناسبة الأنطولوجيا هذه عُتم عليها، رغم أنها أول تعريف دقيق بقصيدة النثر عبر النموذج والتنظير (ويجد معظم مواد الكتاب في ثقافات ايلاف)... وكما كتبت في النسخة المهداة الى الصديق أمجد ناصر: «تصور ماذا كان سيحدث للشعر العربي لو كانت هذه الأنطولوجيا قد صدرت عام 1960؟». أنا أعتقد أن الخطأ الرئيسي الذي ارتكبته مجلة «شعر» هو انها لم تخصص أي عدد، أو ملف، لنموذج قصيدة النثر الفرنسية، وانما اكتفت بمقالة أدونيس التي لا توحي أنه قرأ الكتاب وانما قرأ عرضا صحافيا طويلا للكتاب نشرته أسبوعية لويس أراغون «الآداب الفرنسية». (سأدلل بالنص على ما أقول في مناسبة أخرى). أما ملاحظته حول عدم ذكر قصيدة النثر في مؤتمر روما، فالجواب هو أن مجلة «شعر» خصوصا في حقبتها الأولى، كانت تعتبر كل محاولات الماغوط، شوقي أبي شقرا وآخرين شعرا حرا وليس قصيدة نثر والبرهان أن الخال في أحد اعلانات مجلة شعر للكتب التي صدرت عن دار «شعر»، لم يعرف أي كتاب شعري بقصائد نثر، وانما بـ«شعر»، باستثناء «لن» أنسي الحاج الذي عرّفه كقصائد نثر.

دفعتني مقالته، من ناحية أخرى، الى أن أتساءل: لماذا لم نر لمحمد بنيس قبل هذه الآونة أي ايضاح، أو مقال نقدي أو عرضي حول فوضى مصطلح قصيدة النثر؟ مع العلم بأنه أصدر كتبا عديدة تتناول الشعرية العربية الحديثة، بل حتى لم ينشر في دار توبقال كتابا واحدا يتناول مسألة قصيدة النثر أو أنطولوجيا لقصيدة النثر... لماذا الآن وبهذا النفس اللاهث بمونتاج من الاقتباسات التي غالبا ما ينقصها رابط منهجي، بل منزوعة من سياقاتها النظرية كعبارات مالارميه التي هي تتعلق بـ«أزمة النظم» وعبارات باوند المتعلقة بقضايا الشعر الحر، وليست أبدا في مسألة قصيدة النثر.... هكذا نتفة من هنا ونتفة من هناك حتى يبدو وكأنه قد أطلع على كل التجارب والأفكار وهو العارف الوحيد بباطن الأمور، بينما تكشف مقالته عن خلط واضح وفهم غير دقيق لكثير من الأمور التي تطرق اليها. فمثلا أطلق جزافا «آية توراتية» على قصيدة يوسف الخال لأنها تناولت موضوعا مسيحيا. أين هو التفخيم أو الاسترسال المديد النفس الذي هو من صلب الآية سواء كانت توراتية أو على طريقة سان جون بيرس. قصيدة يوسف الخال التي اخترتها في كتابي وفي مختارات «القدس العربي»، أولا لأنها مكتوبة عن وعي كقصيدة نثر ويجب أن تُضم مثلما ما يقارب ثلاثين قصيدة في كتاب بودلير لا يعتبره بعض النقاد قصائد نثر وانما طروحات فلسفية ويوميات ومع هذا تؤخذ كقصائد نثر بل كقصائد مؤسسة، وثانيا قصيدة الخال هذه على عكس الآية تنطوي على عَنصر سرد واختصار وتوتر ربما ايماني لكنه جزء من عناصر قصيدة النثر، بل حتى على عنصر اللاغرضية، اذ لم تنطو على حكمة أخلاقية واضحة ولا نهاية معلومة من تناوله «العشاء الأخير». وهناك عشرات من قصائد النثر الفرنسية التي تتناول مواضيع مسيحية كقصائد السجالي المسيحي ليون بلوا في نهاية القرن التاسع عشر، بل النبرة المقطعية في قصيدة الخال، تتواجد في عدد كبير من قصائد النثر الأمريكية المعاصرة.

في نظري، لم يأت محمد بنيس، في كل هذه المقالة، بجديد مفيد يدخل في صلب النقاش الدائر حول قصيدة النثر، سوى اعترافه بأنه هو «الآخر وقع ضحية عدم تدقيق الترجمة، عندما استعمل، من قبل، المتداول من غير انتباه»، موضحا «ان الشاعر العربي، الذي لم يعرف قواعد (لا أقول قوانين) هذا الجنس، ظن أن ما يكتبه في شكل أبيات شعرية تتخلى عن الوزن (والقافية)، هو قصيدة نثر، فيما كل استعمال للبيت، بصرف النظر عن شكل البيت، يخرج القصيدة، في عرف معلميها، بودلير ومالارميه، ونقادها ومنظريها، من قصيدة النثر ويلحقها مباشرة بالقصيدة، قصيدة الأبيات... وعندما نكتب قصيدة أبيات غير موزونة (وغير مقفاة، لأن هناك من ينبذ الوزن ولكنه يستحلي القافية) فلنا آنذاك أن نبحث لها عن اسم وعن تصنيف». حبذا لو يعترف كل شعراء قصيدة النثر العربية المشطرة بهذا، ويحاولون ايجاد اسم آخر غير قصيدة نثر، على جل نتاجهم المشطر أبياتا سواء موزونة أو غير موزونة.

لكنني أستغرب من ترجمة محمد بنيس لعبارة Poème en prose بـ«قصيدة في حالة نثر»، وحرف الجر الفرنسي هنا En لا يعني بتاتا «في» أو «في حالة»، وانما يدل على «مادة»، أي أن القصيدة «مادتها en» نثر. (افتح أي كتاب مدرسي يتعلق بالنحو الفرنسي وكتاب صعوبة اللغة الفرنسية وتجد معنى حرف الجر الفرنسي هذا في هذا الاستخدام dsignant la matiäre En)، ولذلك اتفق النقاد الأمريكان والانكليز كلهم على ترجمة المصطلح الفرنسي بـ Prose poem وليس بـ Poem in prose كما حاول البعض ترجمته في بدء خمسينات القرن الماضي، وترجمه توفيق صايغ في «حوار» بـ«شعر بالنثر»، لأن المعنى المراد هو «القصيدة مادتها نثر» أي «النثر قصيدةً» وليس القصيدة في حالة من النثر. كما أن من الخطأ جعل بودلير ومالارميه سيدين مطلقين، فقصيدة النثر لم تكتمل ولم تصبح جنسا أدبيا الا على يد ماكس جاكوب الذي خلص قصيدة النثر من الأغراض الرمزية والبلاغة الباروكية ومن أسلوب اليوميات، ووضعها في كتلة مؤطرة ترتكز على ثلاثة أعمدة: ايجاز، توتر ولا غرضية، أعمدة يتفق عليها جميع النقاد اليوم. (انظر مقدمته لـ«كوب الزار»، في «الأفعى بلا رأس ولا ذيل» صفحة 161). كم كانت فرحتنا تزداد لو أعلمنا أن القارئ العربي لم يقرأ للآن كتاب سوزان برنار بترجمة صحيحة فترجمة راوية صادق تعج بالأغلاط الفاحشة وبعدم فهم الفقرات الفرنسية، بل هذه المترجمة لم تكن قادرة حتى على وضع مقابل عربي لعناوين كتب الشعر المذكورة، كعنوان كتاب فرانسيس بونغ: Le Pari-pris des choses فترجمته بـ«الرأي المسبق للأشياء»!!! بينما الترجمة الأدق هي: «التحيّز للأشياء».

ما يهمني الآن، وهذه هي الغاية من ردي هذا، أن أقول ان محمد بنيس ارتكب خطأ يعبر عن سوء نية أكثر مما عن جهل، عندما كتب في مقالته: «حتى عبد القادر الجنابي (المدعو الغائب) لم يعثر في ما كتبه من شعراء المغرب العربي على قصيدة واحدة تستحق أن تدرج ضمن القصائد النموذجية التي اختارها لشعراء يمثلون برأيه هذه القصيدة». آمل أن لا يكون السبب وراء مرارة محمد بنيس في مقالته هذه من التغييب الذي تم بحق المغاربة في مؤتمر بيروت، لأنهم لم يدعوه...

أقول «سوء نية» لأن لديه نسخة من انطولوجيا «كآبة الصحراء» التي أعددتها لدار نشر باريسية، وصدرت (عام 2001) محاكاة لعنوان بودلير «كآبة باريس»، التي ضمت قصائد نثر عربية تتطابق والنموذج الفرنسي، وهي أول محاولة من هذا النوع.. وكان فيها نموذجان لشاعرين مغربيين هما حسن نجمي ومبارك وساط... وفي الحقيقة لم أستطع ضم عدد كبير من قصائد النثر لعرب آخرين لأن الناشر الفرنسي فرض علي آنذاك بعدد محدود من الصفحات لاتتجاوز الـ80 صفحة وبلغتين الفرنسية والعربية، مما ضيق علي الساحة واضطرني للاقتصار على حد أدنى من الاختيار. ولدى محمد بنيس نسخة من كتابي هذا!

لم يسم محمد بنيس في مقالته أي شاعر لديه نماذج شعرية تنطبق عليها مواصفات قصيدة النثر الأوروبي. آمل أن لا يخرج علينا محمد بنيس بكتل يسميها قصائد نثر وبالتالي يتهمنا بأننا تجاهلناها. نعم! هناك شاعران مغربيان، على حد علمي، لهما ما يكفي من القصائد التي تلبي شروط قصيدة النثر الفرنسية هما محمود عبد الغني وجمال بدومة.. وكان بودي ضم أحدهما في هذه المختارات التي نشرت في «القدس العربي» على الأقل. وبالفعل طلبت من الشاعر الصديق محمود عبد الغني أن يرسل الي قصيدة سبق أن قرأتها في ديوان له تحت عنوان «ماكس جاكوب» لأني أتذكر جيدا أنها جد قريبة من النموذج الأوروبي، فلم يستطع ارسالها، لأنه كان في سفر، فأرسل بدلا منها، ثلاث قصائد أخرى لم استطع أن أختار واحدة منها، ولا من قصائد جمال بدومة التي لدي، ليس لأن المساحة محددة بصفحة واحدة من الجريدة فحسب، بل لسبب رئيسي: هو اني اتفقت مع الشاعر الصديق أمجد ناصر أن تكون المختارات صارمة، أي أن تعبر بالأخص عن اللاغرضية... تاركا أمر القصائد التي تتباطأ في هذا الشرط الأول والأخير في قصيدة النثر العالمية، الى الأنطولوجيا التي آمل أن تصدر كتابا تحت عنوان «أنطولوجيا قصيدة النثر العربية» والشيء الصادم فيها سيكون الغياب التام لقصيدة النثر العربية المشطرة ... ثم تليها أنطولوجيا ثانية تحت عنوان «الوزن المفقود: الشعر الحر الجديد» وتضم مختارات من أفضل قصائد النثر العربية المشطرة السائدة.

في الوقت الذي كان فيه محمد بنيس معاديا لكل تجارب ما يسمى قصيدة النثر المغربية التي أخذت تتصاعد في مطلع تسعينات القرن الماضي، كنت (وأقولها باعتزاز) المشرقي الوحيد الذي فسح المجال كله لموجة شعراء المغرب الجدد، حد التواطؤ معهم في كل «غاراتهم» الشعرية. أريد هنا التالي: لا يحق لمحمد بنيس أن يتكلم باسم قصيدة النثر المغربية، اذ ليس له ضلع لا في تاريخها القاسي ولا في مسار قصيدة النثر عموما. لقصيدة النثر المغربية شعراؤها المؤهلون لمواجهة أي غبن يتم بحقها، خصوصا داخل حدودها. ليعلم القارئ أني لم أكتب ردي هذا من باب تصفية حسابات كما يعملها عدد من شعراء اليوم. كلا. محمد بنيس صديق عزيز علي وأبدى عدة مرات استعداده لتلبية أي شيء اطلبه، دعوة، نشر..الخ وانما كتبته توافقا مع عبارة نيتشه «لأجعل الآفات المتخفية أو البالغة الدقة بادية للعيان».

وصفة لصنع الأزرق

منصف الوهايبي *

صورة(1)
إلى غسّان زقطان

من شرفة "بيت الشّعر" في مدينة رام الله، يمكن حتّى في العتمة، أن تتبيّن مستوطنة "بساغوت" رابضة فوق التلّ..على مسافة مئات الأمتار.. يمكن أن تلمح المنازل وأبوابها.. الأسلاك الشّائكة وفوّهة المدفع.. ويمكنك أنت الذي لم يفقد صوته في فوضى الأصوات.. الذي يلمح الأبد في ثنايا الزّمن، أن تنادي على قتلتك واحدا واحدا! أمّا أنا الواقف في الطّرف الجنوبيّ من ليل القيروان، فأهبط سلّم الذّاكرة وئيدا، إلى حيث أرى آثار طلقاتهم على جدار "بيت الشّعر" في رام الله، الجدار الذي علّقت فيه صور بالأسود والأبيض، لشعراء راحلين: عبد الوهّاب البيّاتي، أحمد شوقي، ابراهيم طوقان، نزار قبّاني،أمل دنقل... وربمّا أضيفت الآن صورة حسين البرغوثي الذي رحل عنّا منذ أشهر قليلة.. في صبيحة باردة، على وقع رصاص القنّاصة والمستوطنين الذين كانوا يطلقون النّار، في الشّوارع المحيطة بالمستشفى! وأراك أنت والمتوكّل طه ومراد السّوداني... منهمكين في جمع الخراطيش الفارغة، وتغيير زجاج النّوافذ، على حين يهبط الضّوء وئيدا ثمّ يعتم.. ولكن يكفينا قليل من الضّوء القادم من أعمدة الطّريق، لنرى فيه وجوها شاحبة كالبراءة، بريئة كالندم! ثمّة شجرة خضراء رماديّة مثل عمود الإشارات..لابدّ أنّ طيور الدّوري في رام الله،لاذت بها قبل هبوط اللّيل.. ولقد سمعت هذه الشّجرة تغنّي عند أوّل خيط من الشّمس، وكان الكرز يحمرّ في عسله الأخضر! سلاما!

صورة(2)
إلى سامي مهدي

قريبا من المدرسة المرجانيّة في بغداد، يقوم خان مرجان.. خان لا يفصل بينه وبين المدرسة سوى شارع الرّشيد.. ندخله ذات غروب من خريف 1988 عبر واجهة تزيّنها كتابات وزخارف شتّى.. كانت أرض السّوق المجاور قد ارتفعت قليلا ، وبدا الخان ـ على علوّه ـ وكأنّه يغوص في الأرض! أذكر كان أحد جدرانه متصدّعا.. قال سامي مهدي:"هذا من أثر الصّواريخ الإيرانيّة".

من الباب تنبعث المقامات العراقيّة الشّجيّة..الحزن عندما يعتّقه الزّمن،فإذا هو ظلّ الصّوت أو قوس الصّدى، صدى أصوات المسافرين والتّجّار الذين مرّوا بالخان ذات يوم! الخان طابقان: سفليّ وعلويّ، يحتوي كلاهما على حجرات صغيرة تفتح على صحن مسقوف. ولذلك سمّاه البغداديّون "خان الأورتمة"(لفظة تركيّة مشتقّة من أورتواي أي الغطاء أو السّتر). على جانبي المدخل سلّمان يقودان إلى ممرّ ضيّق،حيث مداخل الحجرات ذات العقود المدبّبة تضفي على المكان زخرفة بسيطة. وما بين المكان البغدادي البسيط وشعر سامي مهدي تنعقد آصرة لطيفة.. قصائد قصيرة مكثّفة، كلّ سطر فيها أشبه بحجرة صغيرة في خان مرجان! قصائد طلّقت البلاغة ثلاثا،لتعيد الشّعر إلى وظيفته الأمّ: التّسمية حيث الكلمة والشّيء كيان واحد! ولذلك نقف في كلّ كلمة فيه(والكلمة مشتقّة من ك ـ ل ـ م ، ومن معانيها جرح) على أثر ندبة باقية أو جرح أبيض قديم!

كان ثمّة ظلّ ومصطبة في الحديقه/ كان ثمّة في الظلّ سيّدة يتمرّغ في حضنها طفلها/ وهي ساكنة مثل بئر عميقه/ كان ثمّة سيّدة/ وحقائب مثقلة/ وسماء محلّقة فوقها/ وطيور طليقه.

الآن لابدّ أن ننتقي رجلين نعدو بهما أو جناحين قويّين فنعلو.. ونطير! سلاما!

صورة(3)
إلى نونو جوديس

قرأت وصفتك لصنع الأزرق. حفظتها عن ظهر قلب. أخذت قطعة من السّماء،وألقيت بها في قدر كبيرة. حملتها إلى نار الأفق،ومزجتها ببقايا أحمر الفجر حتّى ذابت. ثمّ سكبت الكلّ في حوض كبير مثل بركة الأغالبة في القيروان. وقلت لن يرسب فيها شيء من أوساخ ما بعد الظّهيرة. هي قائلة جدّا مثل أصيافٍ مرتولا في أقصى جنوب البرتغال. ثمّ غربلت بقايا ذهب الرّمل حتّى علق لونه بالقاع المعدني. ولكي لا ينصل اللّون، ألقيت في الحوض نواة خوخ محروقة، ونظرت:لم يخلّف أسود الرّماد أيّ أثر من حمرة على السّطح المذهّب. وإذ قارنت اللّون بأزرق السّماء، كانا حقّا توأمين،حتّى أنّي لم أعد أميّز لون الأرض من لون السّماء!

هكذا فعلت أنا منصف بن المختار بن أبي القاسم، الواقف في الطّرف الجنوبي من ليل القيروان. وهكذا خلّفت هذه الوصفة لمن يريد ذات يوم أن يحاكي السّماء أو يقلّد الأرض ! سلاما!

صورة(4)
إلى دانيال فاريا

ذات صباح مشمس، في بورتو القديمة، على حافة الأطلسي حيث يتآخى نهرٌ دورو والبحر، كانت المدينة لاتزال نائمة في صمت الموسيقى التي هدهدت اللّيل.. طوال اللّيل.. في كوكتيل من الأصوات الصّاخبة، ونقر عنيف يمازج الدّم ، والقلب ينبض على صحنين: واحد يجمع، وآخر يفرّق! ألهذا أنت لم تهرم في بورتو!؟ يا دانيال فاريا! وأثرت ـ مثل الشّابي ـ أن ترحل قبل الأوان!

قالت سيّدة ـ وهي تومئ إلى باب رماديّ داكن ـ :"هذا بيت فاريا!" ثمّ أخذت تقرأ فينا قصيدتك ما بعد الأخيرة:

ينبغي أن اكون الزّمن الأخير/ المطر النّهائي على آخر حيوان في المرعى/ الجثمان حيث الرّتيلاء تقرّ الدّائرة/ آخر درجة في سلّم يعقوب/ ينبغي أن أكون الشّحّاذ على بابي/ والبيت المعروض للبيع/ ينبغي أن أكون التّراب الذي يستلمني/ والشّجرة التي تغرسني/ في الصمّت بطيئا، في العتمة، ينبغي أن أكون الأمس/ الملح المتلفّت إلى الوراء/ والسّؤال عند ساعة الرّحيل!

سلاما!

* شاعر واستاذ جامعي من تونس

ناصر الظاهري.. شعر واشارات تاريخية وفكرية ومراوحة

■ بيروت ـ من جورج جحا: يتميز عمل الكاتب الاماراتي ناصر الظاهري الاخير الذي حمل عنوانا هو «الطائر بجناح ابعد منه» ووصف بعد هذا العنوان بانه «حكاية».. بكتابة شعرية موحية ومحركة وباشارات عديدة تاريخية وفكرية ودينية متنوعة تنم عن ثقافة واسعة وعميقة وجدية .. لكنه في الوقت نفسه يعكس سمة قد تسيء الى هذا كله وهي المراوحة في اجواء حالة واحدة او حالات متشابهة. هذه المراوحة قد تجعل القاريء يشكو من هذه «الكثافة الجمالية» ويشعر بأن الكاتب الذي حمل اليه هذا الكلام الحلو قد أعاده وأعاده في

حالات وصور متقاربة الى درجة ان هذه الحلاوة الزائدة قد تخلق شعورا بانتظار طويل وتساؤلا قد يكون التعبير الصحيح عنه هو «وماذا بعد» .. ليأتي بعد ذلك تكرار مشابه قد يؤدي الى شيء من الملل. ومما قد يضايق القارىء ايضا هو ان نسيجا شعريا من هذا النوع لا يستحق ان يقع قارئه في الملل.

وعلى رغم كثير من العناصر القصصية في الكتاب ووصفه بأنه حكاية فهو اقرب الى الشعر اي انه من ذلك النثر المتفجر بالصور الشعرية والنبض الشعري حتى حيث يسعى الكاتب الى الكلام بنثرية تقارب الكتابة القصصية.

انه سرعان ما يعود الى الغرق في لجج عالم شعري لا يفارقه. صحيح ان ما يعرف في هذه الايام بالتناص اي تداخل اجناس ادبية مختلفة وزوال الحدود بين نوع ادبي واخر قد يكفي ليشرح اعمالا كعمل الظاهري.. لكن المأخذ هنا على كتابة جيدة كعمل الظاهري ليس في تداخل انواع ادبية مختلفة فيه.. بل ذلك التكرار المضني او المراوحة لا في المكان او الزمن –وهما عند الظاهري متعددان كثيران– بل المراوحة في الحالة او الانتقال منها الى حالة هي توأم لها او شقيقة عادية في افضل الاحوال.

ما يسميه الكاتب حكاية هو في الواقع كتابات شعرية متوترة حارة يربطها خيط خفيف يكاد لا يبدو للعيان ليحاول جعلها تنتظم في حكاية واحدة هي حكاية عمر وحياة. الا ان هذا الخيط كان في احيان كثيرة خفيا غير مرئي. صدر كتاب الظاهري عن دار «رياض الريس للكتب والنشر» في 166 صفحة من القطع المتوسط. يستهل الظاهري كتابه بشبه مقدمة عنوانها «في البدء وقبله» تتميز كسائر الاقسام بذلك النبض المتوتر القوي الذي يمضي وسط اجواء من الحنين والاسى راويا بلوعة ما يفترض ان يكون ذكريات طفولة غرست نفسها بعمق لا يمحى في حياة صاحبها كلها. ويبدو الكتاب لنا مرة اشبه بسيرة ذاتية او متخيلة.. مكتوبة في ما يشبه مزيجا من الشعر والقصة وبلغة تصويرية حارة قادرة على التقاط اجواء اناس في مرحلة مضت.

قال «انا الراوي وهي صفة لم اطلبها يوما. هي الصدفة وحدها التي جعلت من هذا العاق وهو صغير يدوس على رأسي وقت مغرب. حينما غابت الشمس عن تلك البيوت الطينية التي تجاور بساتين النخيل ودخل الليل ب